أهرامات وآثار مملكة مروى السودانية
إرث حضارة الكوش الفراعنة السّود



قد يتفاجىء البعض أو تعتريهم الدهشة عندما يعلمون أن السودان بها أهرامات كتلك الموجودة بمصر وإن كانت أقل حجماً وأقل شهرة، إنها أهرامات "مروى" النادرة والتى لا تزال باقية وشامخة وشاهدة على إرث الحضارة الكوشية التى حكمت السودان عبر التاريخ.

واللافت والعجيب أن أهرامات " مروى" يتجاوز عددها الـ ٢٠٠ هرماً، تتواجد فى ثلاثة تجمعات رئيسية، و تتراوح أطوالها ما بين الـ ٦ أمتار إلى ٣٠ متراً، وقد تحطم الكثير منها عبر العصور، وتوجد المنطقة التى تحوى هذه الاهرامات فى جزيرة "مروى" التى تبعد عن العاصمة الخرطوم بحوالى ٢٠٠ كيلومتراً، وتقع داخل أحد الأنهار الجافة التى تشق الصحراء.

بنيت أهرامات مروى فى الفترة ما بين ٧٢٠ -٣٠٠ قبل الميلاد والغريب فى الأمر أنها تتجه جميعها ناحية الشرق لتحية الشمس واستقبال مشرق اليوم الجديد، وتتشابه مع أهرامات مصر بأنها تزدان بعناصر زخرفية مستوحاة من الحضارتين الفرعونية والكوشية التى اشتُهرت باسم "الفراعنة السود".

وقد يتعجب القارئ لماذا لم تنل هذه الآثار التى تُعد من الكنوز الأثرية شهرة واسعة كتلك التى تتمتع بها أهرامات الجيزة بمصر، على الرغم أن اليونسكو أدخلها ضمن أماكن التراث العالمية، وقد يرجع السبب فى عدم التسويق لتلك الاهرامات وعدم قدرتها على اجتذاب الزائرين، نتيجة الظروف السياسية وواقع العقوبات المفروضة على السودان، فضلاً عن وجودها فى منطقة صحراوية غير مؤهلة لاستقبال السائحين على نطاق تجارى وواسع.

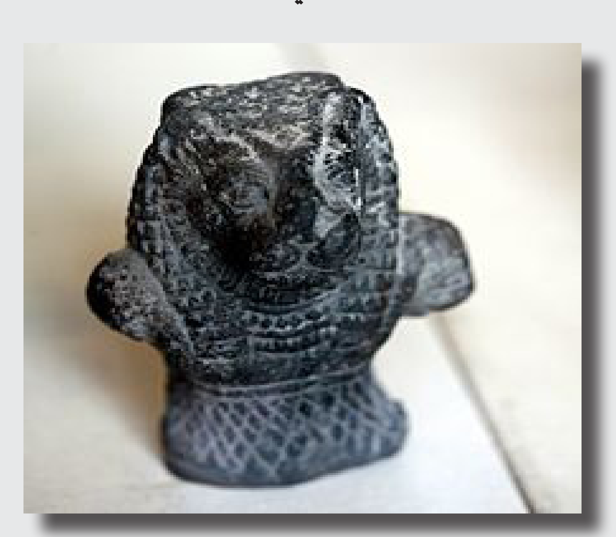


وقد بدأت الدولة السودانية تولى عنايتها لآثار تلك المنطقة، وأطلقت مؤخراً حملة لترميم واستعادة بهاء تلك الأهرامات التى تم إهمالها لفترات طويلة من الزمن، حيث بدأت بعثة دولية تضم خبراء فى الآثار وأعمال الترميم من المعهد الألمانى للآثار، وكوادر وطنية من الهيئة العامة للآثار والمتاحف وخبراء من مختلف أنحاء العالم، تستهدف وضع خطة متكاملة لإدارة موقع "البجراوية" باعتباره أحد مواقع التراث المسجلة بالقائمة العالمية بمنظمة اليونسكو والتى يتركز فيها دفن ملوك وملكات مملكة مروى، وترميم وتأهيل أكثر من ٤٠ هرماً خلال المرحلة الأولى فى إطار خطة ممتدة حتى عام٢٠٢٢، كما تشمل هذه الخطة مناطق جبل البركل والكرو ونورى، للبحث عن مزيد من الكنوز الاثرية التى قد تحويها رمال المنطقة.

يُذكر أن مدينة مروي الواقعة على الضفة الشرقية لنهر النيل، وتبعد حوالي ٦ كيلومترات الي إتجاه الشمال الشرقي من محطة كبوشية بالقرب من مدينة شندي، كانت عاصمة لعدة قرون، لمملكة نبتة- مروى الكوشية التى حكمت السودان قديما خلال الفترة من القرن الثامن وحتى القرن الرابع قبل الميلاد، وقد أطلق الكوشيون هذا الاسم على كل الجزيرة و شبه الجزيرة الواقعة بين نهر عطبرة في الشمال والنيل الأزرق في الجنوب ونهر النيل في الشرق، ويطلق علي هذه المنطقة حالياً اسم إقليم البطانة.

وفى الاشتقاق اللغوى العربى يُطلق لفظ مروي أو مرواه على تلك المنطقة, وباللغة المروية تُنطق "ميدوي", وبالإغريقية "بيدوي، بحسب العالم لازولا توروك 1998 وكل تلك الأسماء تعطى نفس المعنى للمدينة الأثرية "مروي"، وفقاً للنصوص المروية التي لم تُفك شفرتها بشكل كامل، وقد كشفت الأبحاث الأثرية أن تطور الثقافة المروية للأسرة الكوشية الخامسة والعشرون التي نشأت في كوش ينسب تطور مفهوم الحياة المدنية فيها للملك "ارك كماني" الذى حكم عام ٢٨٠ قبل الميلاد وقام بتحويل المدافن الملكية من جبل البركل في نبتة الي منطقة جزيرة مروي.

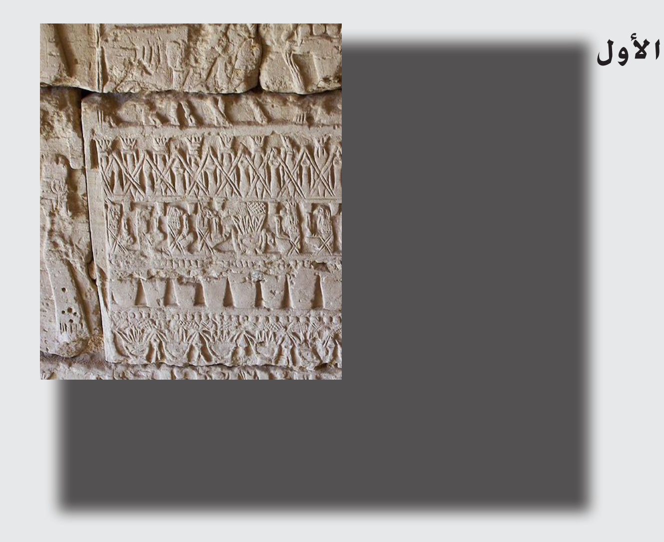
تتحدث تقارير عن هذه الآثار باعتبارها أطلال "المدينة المفقودة" وسط الرمال، وتتميز أهراماتها ذات القمم المدببة، وبتصميمها بزاوية شديدة الإنحدار من الأعلى إلى الأسفل وكذلك بصغر حجمها التى يتراوح إرتفاعها ما بين ٢٠ قدم إلى ١٠٠ قدم، كما توجد فى المنطقة أهرامات أخرى أكبر حجماً تتميز بقممها المسطحة وتشتمل على رسومات ونقوش سجلت على جدرانها توثيقاً للحضارات المعاصرة لها في تلك الفترة، وبما يدل على المدى الذي كان عليه



التواصل ما بين حضارة مروي ومثيلاتها في النوبة المصرية.

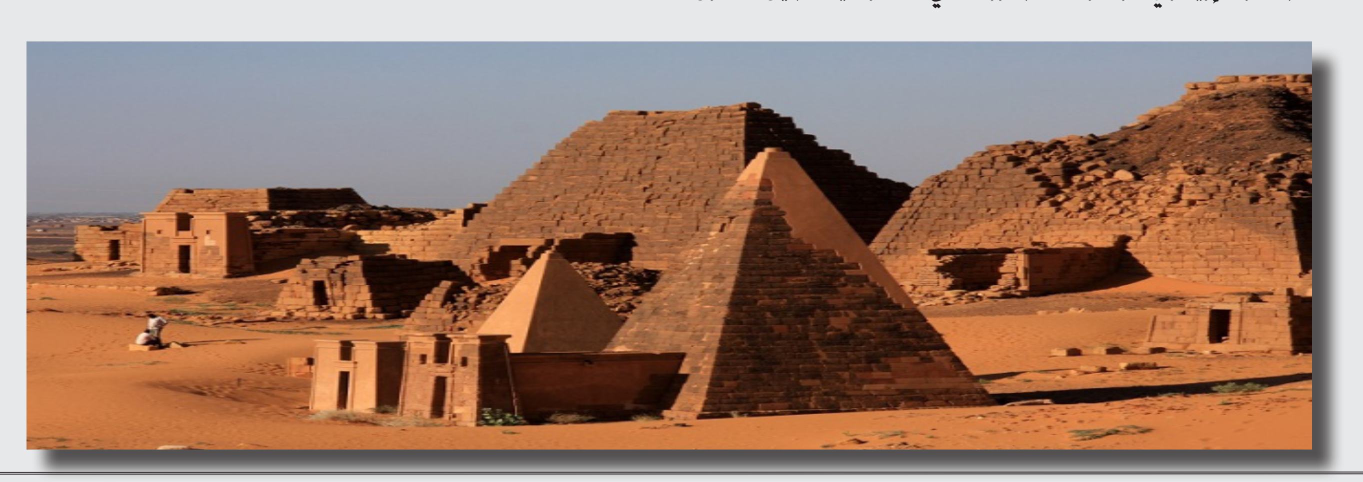
وتشير العديد من المصادر التاريخية أن قيام الرومان باحتلال مصر قديماً ومحاولاتها التوسع جنوباً، أدى لوقوع اضطرابات فى المنطقة الجنوبية من مصر بامتداد العمق السودانى، استتبعته بمناوشات وأعمال عنف بين النوبيين والرومان، وعندما حكم الكوش حاولوا القيام بغزو جنوب مصر، مما حدا بالحاكم الروماني "بترونيوس" بإعلان الحرب على المملكة الكوشية والانتصار عليهم وطردهم من جنوب مصر والاستيلاء على ملكهم وثرواتهم، وفي هذه الأثناء قام الكوشيون بهجوم كبير علي القرى المصرية قرب الشلال الأول في أسوان وقاموا بالاستيلاء علي العديد من المقتنيات والتماثيل وكان من بينها تمثال معدني لرأس الإمبراطور أغسطس نفسه، وقاموا بدفن التمثال عند درج المعبد كي يطأه الناس بأرجلهم، وبعد توقيع اتفاق السلام بين الكوشيين والرومان في جزيرة "ساموس" عام ٢٢ ميلادية، أعاد الكوشيين تلك التماثيل وتمتعت مروي بعلاقات تجارية قوية مع الرومان، وبمرو الزمن وكنتيجة مباشرة للحروب مع الرومان تدهورة الصناعات التقليدية في مروي وبدأ الضعف يدب في أوصال إمبراطورية الكوش، وقد وثقت الحقبة الأخيرة من حضارة مروي في مسلة انتصار نصبها ملك غير معروف من مملكة أكسوم ٣٥٠ ميلادية يُرجح انه الملك "عيزانا".

وقد جاء ذكر جزيرة مروى في كتاب "الطواف حول البحر الإريتري" وهو كتاب روماني صدر فيما بين القرن الأول



والقرن الثالث بعد الميلاد لوصف كيفية الإبحار والفرص التجارية في أنحاء المعمورة خصوصاً في البحر الأحمر وشمال إفريقيا والهند، وجاء فيه "علي يمين الشاطئ وبعد بيرنس توجد بلاد البربر إلي الداخل، وقبلهم وعلي طول الشاطئ يسكن آكلوا الأسماك في كهوف مبعثرة في أودية ضيقة، ويليهم آكلوا اللحم النيئ وآكلوا العجول حيث كل قبيلة منها يحكمها رئيس، وأبعد من هؤلاء إلي الغرب توجد مدينة اسمها مروي".

وتحكى كتب التاريخ أن حضارة مروي قامت علي كنف مملكة الكوش التى كانت غنية ومزدهرة من صناعة الحديد والتجارة العالمية مع الهند والصين، وقد استقطبت عمال التعدين من كل أنحاء العالم، وهذا مادفع المؤرخون لإطلاق اسم "بيرمنجهام إفريقيا" علي مروي لتوافر خام معدن الحديد وتصنيعه فيها من خلال أفران الصهر والمحارق وكان مشهود للمرويين بأنهم أفضل صناع الحديد في العالم، كما كانت





مشهورة بغنى أراضيها بخام الذهب، كما صدرت مروي المنسوجات القطنية والجوهرات، وبلغت أعلي درجات الازدهار عام ٤٠٠ قبل الميلاد، كما أشتُهرت بتجارة الحيوانات النادرة حيث كان هذا وجهاً أخر من أوجه الاقتصاد المروي المتنوع.

وبحلول القرن الثالث الميلادي ما بين عام ٣٠٠-٧٠٠ قبل الميلاد، طور المرويون أبجدية كتابية جديدة خاصة بهم بديلة عن الهيروغليفية المصرية ولكنها مشتقة منها، وكانت تتكون من ٢٣ حرفاً واستخدمت لكتابة اللغة المروية في المملكة.

أما عن شكل الحكم في ظل الكوش النوبي فقد كان يتسم بالنظام الاتوقراطي، حيث لايشرك الحاكم أحداُ في الملك باستثناء الملكة الأم التي كانت تعرب باسم "الكنداكة" فيما يباشر الملك بنفسه أدارة الخزينة وحملة الأختام وحافظي السجلات ورؤساء الكتبة وكل مايلي ذلك ، وكان للكوشيين في مروي إله خاص باداماك بجانب الآلهة الفرعونية التي كانت تعبد بدرجة اقل مثل أمون وحورس وإيزيس وتحوت وغيرها

جدير بالذكر أن أول معرفة للغرب لحضارة كوش، وآثار وأهرام مملكتهم كانت على يد عالم المعادن الفرنسي "فريدريك كلود" الذي زار مروي ثم عاد إلي أوروبا ونشر مؤلفاً عام ١٨٢١م يصف فيه آثار مروي، ويُعتقد أن هذا الكتاب كان السبب الرئيسى لحضور الكثير من صائدى الكنوز والباحثين عن الذهب، وكان على رأس هؤلاء الإيطالي" جوزيبي فريليني" الذى اكتشف آثاراً متنوعة وخصوصاً الجوهرات والحلي الذهبية الملكية، والتي تعرض في متحف برلين حتى اليوم.

أما من الناحية العلمية، فيُنسب اكتشاف حضارة مملكة مروي للعالم الألمانى" كارل ريتشارد ليبسيس" عام ١٨٤٤ الذي قام برسم العديد من الخرائط والرسومات للمنطقة وأهراماتها وآثارها وكنوزها وهى الموجودة أيضاً حتى اليوم في متحف برلين.

ثم تواصلت عملية استكشاف المنطقة خلال الفترة من ١٩٠٢-١٩٠٥ عن طريق عالم المصريات والمستشرق الإنجليزي "إي. أ وليامز بدج" والذى يُنسب إليه فضل اكتشاف معظم أكبر وأضخم آثار مملكة مروي حتي الآن ومنها مجسمات النحت البارز في حوائط المعابد التي تظهر أسماء الملكات وبعض الملوك، وبعض فصول كتاب الموتى والمسلات المنقوشة باللغة المروية والأواني المعدنية وأعمال الخزف، والتى ضمها فى كتابه "السودان المصري - التاريخ والآثار" الذى أصدره في لندن عام ١٩٠٧ و أثبت من خلاله أن الأهرامات النوبية كان يتم بناؤها على غرف تم نحتها في الصخر وتحتوى علي أجساد الملوك الراحلين التي عادةً ما يتم تحنيطها أولاً كما في بعض الحالات.

وفي عام ١٩١٠ تم القيام بأعمال حفر وتنقيب واسعة في تلال مروي ومقبرتها الكبرى بواسطة العالم الإنجليزي "جون جراستنج" حيث أسفر البحث عن اكتشاف قصر كبير ومعابد شيدها حكام مروي، ثم في عام ١٩١٦ قام الحاكم البريطاني للسودان "ريجنالد ونجت "بإرسال قوات لشق الطرق إلى إهرامات مروي وقد أدى ذلك لإغراق العديد من الأعمدة والآثار.

